غريزة الأنانية وعلاقتها بالإجرام

للأستاذ محمود يوسف

الأنانية كيفية من كيفيات النفس وحالة من حالاتها الفطرية التى لا يمكنها الانفصال عنها ، فهى صفة ثابتة لكل حى طالما كان كل انسان يحب البقاء ، بل إن حب البقاء مشترك بين جميع الناس والكائنات ، كلها يعيش ويدافع عن نفسه .

وللأنانية عدة مظاهر ، فكما تكون دافعة لصاحبها إلى حب الخير لشخصه والعمل على تشييد سعادته ، فهى أيضا تكون مبعثا إجراميا ,

الأنانية قوة باعتبار أنها تحمى صاحبها ، ولكنها متى ضعفت ، أعنى أنها متى خرجت بقوتها عن حيز الاعتدال ، كانت هى الضعف ، وأصبحت مرضا من أخطر الأمراض.

وبحكم أن الأنانية ملتصقة بحس كل شخص فهى معرضة لحالات ضعفه ، ومعنى ذلك أن بكل انسان كمية أنانية خاصة ، واستعدادا محدودا لقبول الاجرام ينقذه منه وجود هذه الأنانية فى مستواها اللازم المعتدل وعدم طغيانها .

وإذا قلنا الإجرام ، فلسنا نعنى مثلا القتل والسرقة وسائر الاعتداءات التى ينتهى مصير أصحابها إلى (طرة) وزميلاتها . ولكننا نعنى أيضا جرائم أخرى نفسية منها تلك الحالات الفكرية التى تؤثر على ميول صاحبها ، وتدفع به إلى الشعور الدائم بالأحزان والهموم والآلام فى كل نواحى الحياة ، فيحس بالعبوسة والنكد فى جميع ما يرى حتى فى نغمات الموسيقى ومنظر البستان الناضر البهيج ، ويتذوق الحسرة فى جميع ما يجد من خواص الحياة المختلفة ، حتى ولو كانت مما تشعر النفس بالراحة والطرب والطمأنينة .

الحقد :

سبب هذه الحالات الإجرامية النفسية ومصدرها الأول هو الحقد ، الحقد الذى لا ينمو إلا عند ما تنبه الأنانية وتوقظ ثورته فى النفس .

والحقد يعرض للأخطار سواء منها ما يتعلق بالروح أو بالجسم . وقد قرر العلماء أن المجموع العصبى والجهاز الهضمى معرضان دائما للأذى بعوامل هذا الحقد ، وكذلك الكبد والقلب أيضا يستهدفان لأعظم تأثير واضطراب تبعثه نزعة الحقد الملتهبة ...

والأنانية المتطرفة خروج على الإنسانية بمعناها الصحيح ، لأن الإنسانية حب متبادل وعطف متصل ومشاركة فى كل مظاهر الحياة .

الإنسانية جامعة واحدة ، علومها المحبة والخير والفضائل ، وأساتذتها قادة العدل والاحسان ، فمن هذا تكون الانسانية الحقة ميدانا فسيحا وروضا جميلا يستنشق الانسان منه عبير السعادة

والهناء ، فهل هذا ما يشعر به كل انسان منا ؟ الجواب بلا شك ، لا ، والسر كامن فى تلك الأنانية الصارخة والتى شملنا نفوسنا تماما فمحت الميول العالية والضمير وظلم الضعيف وما أكثر الضعفاء بيننا ، وكم نحن نكثر من عددهم وتضاعف أمراضهم وآلامهم ونعرض مصرنا معهم لاستفحال حالة البؤساء والمظلومين ، وسبب ذلك هو الأنانية التى لم تدع أمامها شيئا إلا اجترفته كالسيل المنهمر .

وعند هذه النقطة يمكننا أن نضع أيدينا على باعث فواجع القتل والظلم ومآسى العدوان على البائسين ، وهضم حقوق الأيتام والمحتاجين .

فإن مررنا بأبصارنا على السائلة وعابرى الطريق وتصفحنا سحناتهم لرأينا على سيماء وجوههم العبوس والاصفرار والدمعة الحائرة . ولو سألنا كلا من هؤلاء التعساء عن سبب أحزانه لأجابنا صمته بأنه مظلوم ؛ وأنه راغب فى الفرار من الاعتداءات الفردية والاجتماعية ، متضايق من انحطاط أخلاق الناس شاعر بأن المجتمع لم ينصفه لأنه انانى متطرف .

من هو الأنانى المتطرف :

من صفات الأنانى المتطرف أن تراه متقلبا لا يثبت على حال ، شديد الانفعال والتأثر من أجل نفسه ، ميالا إلى كل ما كان محاطا بالغموض ، شغوفا بلعب الميسر بشكل شنيع ، كثير الزهو بنفسه بعيد المطامع مع كونه ضعيف الإرادة ، مترددا فى أكثر أعماله الخيرية متطرفا فى البخل أو فى الإسراف ، ميالا للقيادة ، وهو دائما يبغض الترو والثبات يميل إلى التملق والخداع ، مولعا بالمجادلات والمنازعات ، قليل التصادم فى أوائل حياته ، مشتت التفكير فى أحوال كثيرة شديد الخوف والحذر .

أما الأنانى المعتدل (أو الإنسان المقبول شكلا وموضوعا) فتراه مملوءا حياة ونشاطا ، خفيف الحركة ودودا بساما للحياة ، ميالا للعلم والعمل متصرا لمبادئه ، وهو دائما ساكن هادئ ، متمسك بالصدق والإخلاص ، طيب القلب ، سريع الغضب ، سريع الرضاء . فيه بساطة وفيه دهاء ، عشرته لا تخلو من لذة ممتازة ، قوى الملاحظة مملوء بالقناعة النفسية يطربه المديح والثناء ، قوى الإرادة فى مواقف خاصة هزيلها فى مواقف العاطفة ، سريع التعرف إلى الناس واكتساب الأصدقاء ، جديد الأفكار محب للآداب والفنون ، معتدل فى المثابرة متدين راغب فى التقوى .

والآن ، وقد ألممنا ببعض صفات الأنانى المتطرف والمعتدل فلنرجع إلى بطل السوء أو الأنانى المتطرف الذى أحال الحياة جهادا شاقا مريرا فكون تفكيرا سيئا مستمرا جعل الإنسان متناقضا مع نفسه ومعرضا لكثير من النزعات والأهواء المضطربة .

لقد أخرجت الأنانية هذا الإنسان الأنانى المتطرف إلى شذوذ الإجرام وجعلت منه فى أكثر الحالات مزاجا من الشر وأسباب الخطر . فأصبح متفننا فى الأذى لا يهمه

إلا إشباع نفسه وملذاته مهما يكلفه ذلك من ثمن ويكون هـذا الثمن غاليـا ، ما نشاهده وما تطالعنا به الصحف من فظائع اجترفت التعليم والأفكار والعقول ، واجتاحت الإنسانية والأخلاق ، واعتدت على الأديان وكل معانى الفضيلة .

ألم تسمع أو تقرأ عن فتاة قتلت بالسم أسرتها المكونة من سبعة أشخاص لأنهم مانعوا فى زواجها من خفير بالبلدة .

ألم يبلغك خبر رجل طولب بنفقة ابنته فقتل فلذة كبده البريئة هروبا من النفقة وانتقاما من أمها .

ألم تقرأ أو تسمع حادث تلك الأجنبية التى شرعت فى قتل أمها وأبيها بالسم فمات الأب واتهمته ابنته فى موته بأبشع التهم وذلك من أجل عشيقها للاستيلاء على المـال .

ألم تقرأ فى جريدة الأهرام الغراء تحت عنوان (إجرام وحشى) أن وزارة الداخلية تلقت من أسيوط أن أحد المحسوبين على النوع الآدمى واسمه أمين عبـد الحق من الزاوية قتل أخوين له وولدى أخيه الأكبر القتيل طعنا بالسكين ، وذلك لأن أخاه الأكبر زوج أخا المقتول أصغر منه قبله فحقد عليه حقدا وحشيا وفعل فعلته الأثيمة واعترف بالجرم .

ألم تسمع بالأم التى حرضت على قتل ابنها لزواجه من فتاة لا ترغب فيها تلك الأم .

ألم تقرأ حادث الولدين الشقيقين اللذين قتلا أباهما بتحريض من أمهما بقرية العطف من أجل منزل قديم .

ألم تسمع عن حادث الطبيب الكبير الذى تآمر على صديقه المحامى الذى أخلص له وأكرمه فأفسد عليه زوجته وطلقها منه وتزوج منها بعد أن تركت أربعة أطفال لزوجها ، ولم تكتحل عينها منذ أربعة سنوات بمشاهدة أطفالها وهى الآن محرومة من رؤيتهم ومشاهدتهم .

ألم تقرأ أو تسمع عن وحوش الانسانية الذين فتكوا بالفتاة الراقصة من أجل دراهم معدودة .

* * *

هـذه بعض صور من الجرائم التى أدت إليها الأنانية المجرمة فى ميدانها المتسع . وكم من الجرائم ولدتها هذه الأنانية ولولاها لمـا وقعت ولمـا ارتكبت .

و يقول بعضهم إن التعليم ينقذ من غرائز الشر ، فأقول عجلا متأملـا هل كان التعليم منقذا من تلك البلايا الفادحة والمصائب العديدة التى غمرت الحياة دماء وظلما .

كلا وألف كلا ، فالأفاكون والدجالون والخائنون السفاكون والدساسون والمحتالون أكثرهم من المتعلمين الأذكياء المفكرين ، لم يعصمهم علمهم من غارات الشهوات ولم يرد عنهم غوائلها الأثيمة .

ماذا فعلنا بالأنشودة العذبة التي تتغنى بها الجماعات، وتسعى إليها الأفراد، ألا وهي التعليم للجامعة الإنسانية ؟

لم يكن العلم عمادا للحياة ولا دعامتها الأولى للخروج من الظلمة إلى النور ومن الشقاء إلى السعادة ومن المرض إلى الشفاء، لأن عوامل الأنانية المتطرفة الهدامة تمكنت من أن تحول العلم إلى يقظة ضارة، فأحدثت تمددا سيئا في التفكير استحكمت به الأنانية المجرمة، وقلبت جميع القوى الحسية في الإنسان إلى معاول مقوضة للفضائل، فخضع الإنسان فذا باسما متلذذا يشاهد تلك الفظائع هادئا مرتاحا بل يرتكبها و يقترفها .

لقد خرج كثير من الناس عن حد الاعتدال في كل شيء ، فدفعت بهم أنانيتهم المتطرفة إلى هذا الإجرام المؤلم الذي جاء نتيجة الإسراف في كل شيء ، والإمراع إلى كل شيء ، والتلهف على كل شيء ، والطمع في كل شيء . بذلك نتج الانقلاب الهائل المفجع في جميع أطوار الحياة الاجتماعية، وكان سببا في تكوين نصف المجرمين في العالم ، حتى لقد فكر العلماء في معالجة المجرمين قبل أن يفكروا في عقابهم .

إن الأنانية المجرمة جعلت الإنسان ينسى نفسه ومشاعره وضميره ونداء العقل فيه، و ينسى النظام و ينسى الكرامة الحقة، و يرتمي في أحضان الجريمة، وما زال بها يعانقها مندفعا بأنانيته الطائشة إلى طوفان إجرامي أغرق العالم في الألم .

فما السبيل إلى مكافحة هذه الأنانية المجرمة أو تخفيفها ؟ السبيل إلى ذلك اتباع أوامر الدين ليخرج الإنسان من هذه الظلمة، وأن يراقب نفسه في كل صغيرة وكبيرة، ومقاومته لداء الشر ودوافعه .

عندئذ تتكمش الأنانية الطاغية شيئا فشيئا، ولا تعود الى الفوضى الاجتماعية الخطيرة التي تهدد العالم بالدمار والتي تتعمق بها حفر الهلاك .

إلى المحبة ، إلى الوئام ، إلى التهلل بنعم الله ، إلى الاخاء ، إلى الواجب والحق، إلى العدل .

محمود لطفي

إنما النفس الإنسانية طاهرة بأصلها ، فلا يتكلف الذي يريد أن يكون رجلا طيبا إلا أن يحاسب نفسه على الشر ، ويلفتها إلى فعل الخير . وأنها بأصلها القدسي قابلة لأن تشفى من أمراض الغضب والحقد والحسد وتصير ينبوعا غزيرا للمحبة ، تعرف كيف تحب العدو كما تحب الصديق .

أحمد لطفي السيد باشا